شخصيات النص السردي
في (ارض الحكايا) للقاصة سناء شعلان

بقلم: محمد إكويندي/ المغرب

تضمّ هذه المجموعة القصصية بين دفتيها ست عشرة قصة، كلها منبثقة من ممثل / شخصية، بوصفه بؤرة تقاطع بين مكونين اثنين: مكون تركيبي ومكون دلالي.. وشخصيات موازية تلتقي أفعالها وتتداخل لكي تخلق شبكة تتحدد داخلها مجموع العلاقات الرابطة بين الوحدات المعنوية: التراتب، التشابه، التقابل.. تبقى هذه المجموعة القصصية (أرض الحكايا) علامة مائزة في كتابات سناء شعلان، على كتابتها الأولى، لكونها جعلت (الحكاية) في كل قصة أرضيتها / إطارها، واستخدامها للغة شفافة أكثر تداولا حتى تمنحها سلطة صفة الرأي العام، بجمل قصيرة، وشخصية ساردة متعالية مالكة للحقيقة ومطلقة المعرفة، هي داخل الشخصيات وخارجها، منفلتة من نطاق رتابة الحكي التقليدي، وفي تبرير هذه المجموعة القصصية، نرى تغيراً واعياً في الطريقة التي كتبت بها سناء شعلان قصصها، سواء في بنائها أم موضوع كتابتها، فقد نضجت، وأصبحت أصلب عوداًا ،وأقل سنتيمالية وتشكل مظهراً جديداًا للنّنفس المعاصرة التي تستبدل الرؤية الشخصية بالمعرفة وتعكس التّتّغيرات في الأعراف والمحرمات...

تأتي تجربة سناء شعلان، ضمن فضاء الكتابة بفعل الممارسة، والإنتاج، كما تنخرط في التوسع والإضافة إلى ما تخوض فيه: أميمة الناصر. جواهرالريفاعة, جميلة عمايرة,هدا الجيل الذي برز بعد، سميرة عزام، و نجوى فرح قعوار، و ثريا ملحس، و سامية عطعوط، ورجاء أبو غزالة، وزليخة ابو ريشة، وهند أبو الشعر... إن ما أثارني في كتابات القاصة والروائية سناء شعلان، أنها لاتتعامل مع المثلية النسائية كحالة شاذة وجديرة بالإدانة، إنها لا تتعامل معها كموضوع واقعي جدير بالاهتمام والفهم، مثل ذلك بقصص: ((أكذوبة المد والمرجان، صديقي العزيز، الثورة)) وتجدر الإشارة عند اختياري لبعض النصوص الإبداعية في (أرض الحكايا) كونها حققت تنوعاًاً يسمح بتغطية الحياة الداخلية للمرأة في مراحلها المتعددة وصورها المختلفة، حيث تتبعتها، مراهقة، وعاشقة، وزوجة، و أم، ومغامرة... وهذا لايتأتى، (أرض الحكايا) بأن تتخطى هذه الظواهر بنظرة فنية، دونها استحضار ما حقّقته (القصة الأردنية) من قفزة نوعية بخصائص مميزة، وجماليات سردية متمثلة في الجيل القصصي الجديد الذي بذل جهداً في التطور والتعديل، وهذا المجهود كانت وراءه مدامك قصصية كخلفية استمد منها الجيل اللاحق قوته وشحنته الإبداعية ومن هذه الأعمدة ممن لازال يواصل فعل الكتابة القصصية، كإلياس

فركوخ، وجمال أبو حمدان، و فخري قعوار، ومحمود شقير، وهذه الترسانة القصصية المدعمة بالنقد والتنظير، ومثال لذلك لا للحصر: عبد الرحمن ياغي، و عبد الله رضوان، وممدوح أبو دلهم، و نزيه أبو نضال، وحكمت النواسية، ومحمد عبيد الله... هذا الجرد الموجز، هو الأرض الصلبة ((لأرض الحكايا)) وما نستشفه كذلك اعتراف في لاوعي الكتابة عند القاصة سناء شعلان: " عندما كنت صغيراًكنتُ أُحسب أنّ هناك أرض للحكايا، وعندما احترفت فن كتابة القصة حزمت بعناد الأطفال إن هناك أرضا للحكايا، ولكن طوبى لمن يستطيع إن يدلف إلى تخومها ويعرف السبيل إليها لأنّ قراءة الكم المتواجد وحده، فعل كفيل بتجاوزه وإلا بقي من يريد أن يدلف أرض القصة الأردنية يراوح مكانه.

تلجأالقاصة إلى خدعة الفن (نواة) أرض الحكايا، في مراحل من مراحل نسيجها السّردي، فتلون بذلك بؤرتها الأساسية، التي تلتقي عندها عناصر التصميم القصصي كلّها، قبل أن تواصل انحدارها إلى (السّر د) أو القصة المفتاح التي هي (أرض الحكايا) التي هي إثبات الوحدة الجوهرية للمجموعة ككلّ ، كما أفصح ذلك الملفوظ: " بعد شهر كان عندي مجموعة قصصية رائعة أسميتها (أرض الحكايا) ص 157)) وضعت تصميماًاً يرشد إلى مفتاح الكتابة القصصية، إستاداًاً إلى الإطار العام، إنّه تصميم يمكن شرحه إلى (الثيم) المشتغل عليها: (البحر/ المرأة، المد / الجزر، الماضي / الحاضر، الماء / الأرض، الطول / القصر، شخصية ثابتة / شخصية متحركة) وهاتان الوظيفتان / الثنائيات الدلالية المصممة على أساس شكلي متتابع، كحكايا ألف ليلة وليلة، من الناحية البناء وتوالد الحكايات.. ويمثل (محمود المهندس الشخصية السردية، شهرزاد هو الأيسر لخدعة صدقيه (المهندس) داخل الكوخ..) ويمكن في ضوء هذه الثنائيات الدلالية التي لها صدى في الفضاء الذي ينقسم على أثر ذلك إلى ثنائيات كما تحد لنفسها صدى في الزمان الذي ينقسم على إثر ذلك إلى ثنائيات أيضاًاً، تصوّر نوعين من الشخصيات:

– الأولى تؤكد العالم الذي تحتويه النصوص الفاقدة للمبنى كما تؤكد ثبات حدوده: (الكوخ، المنارة، البحر)

– والثانية تخترق هذه الحدود، وبعبارة أخرى تقوم بتفجير العنصر، وتبرز مجموعة من التحديدات التي تلقي بظلالها على مجموع عناصر القصة وتسمها بمسميتها،فهناك أولاًاً تعيين للسّار د، وهو سارد يتشكل تلفيظاًاً من خلال ضمير (المتكلم)، إنّه سارد متعالٍ مالك للحقيقة ومطلق المعرفة، إنّهداخل الشخصيات وخارجها، يجمع بين يديه وظيفة السّر د ووظيفة التأويل، إنّه يصرح بأنّ ما بين يديه قصص، وإنّهسيكتب هذه القصص والحكمة التي تتصدّر كلامه: " عندما كنت صغيراًاً أحسب أنّ هناك أرضاًاً للحكايا نستطيع...) ويفتتح بها القصة هي خلاصة

لهذه القصة، (الحكمة سابقة على الإحداث على مستوى السرد ولاحقة عليها على مستوى القصة) وبما أنّه مالك لها تين الوظيفتين، فإنّ خطابه يتحوّل إلى وظيفة ميثا- سردية أيّ إلى خطاب يتحدّث من خلاله عن الحكي وعن القصة، والحكمة هنا نص نسقي(ة) قابل للتسريد في أيّ وقت وقابل لتوليد قصة يدعم بها المضمون الحكمي من هنا ستكون هذه الحكمة منطقاً لمجموعة من التمييزات تبدأ بالحواس،وتنتهي بالمواصفات والوظائف التي تلتقطها عين السّارد (محمود المهندس) لتودعها داخل كيان الشخصيات الفاعلة داخل نص النصوص (أرض الحكايا) وأولى هذه التمييزات هي التمييز بين القلب والعين (معادلها نافذة الكوخ ومحمود المهندس) بين الحاسة الداخلية وإدراك الأشياء الخارجية، بين التعامل السّطحي مع الأشياء والتعامل الوجداني معها إن هذا التمييز سيكون أصل التمييزات اللاحقة ومنطلقها وإذا جعلت سناء شعلان، محمود المهندس (الشخصية) كمركز توجيه على مستوى السّرد وعلى مستوى التلقي، سنحاول الإحالة على مواصفات شخصيات أخرى مالكة لمواصفات مشابهة للأولى:

حارس المنارة الذي هو نفسه حكاية تذرع "أرض الحكايا ذهاباً وإياباً " انه رجل مجنون، يسكن المنارة المعطلة منذ سنوات، ويقضي ليلة في السير على الشاطيء ممسكا مصباحاً يدوياً ، أمّا نهاره فيقضيه متنقلاً بين صخور الشاطيء الشرقي، كأنه يبحث عن شيء ما، قلما يغادر ساحل المنارة وقلما يحدث أحداً ".

وإذا كانت هذه الشّخصية الموازية للشخصية الأولى (فاعل داخل نسيج (أرض الحكايا) على الأقل فإنّ (محمود المهندس) يتميز بالاستمراريّة على مستوى السّرد وعلى مستوى القصص، فكل الأحداث المسجلة في المجموعة القصصية لها مرجع واحد هو هذه الشخصية ((السّاردة) أو الكاتب لهذه القصص) بوصفها مشاركاً أو متفرجا أو موضوعاً لفعل ما، وإذا كانت هذه الخاصة لاتحدد ماهية (محمود المهندس) ولادور لها في تشكيل هذه الماهية، فإنها على المستوى آخر تعد الخيط الرئيس المؤدي إى تشكيل كينونة الشخصيات الأخرى، فمحمود المهندس يمكن النظر إليه كمرجعية قيمية تقاس عليها كلّ القيم المبثوثة في النّص فضلاً عن كونه محدداً من خلال رسم علم كامل (محمود المهندس)، فإنّه متميز من خلال امتلاكه للقصص، وهذه القصص هي من الجدة والأصالة التي يستمدّها من الشّخصية الموازية له في أرض الحكايا (حارس المنارة وزوار الشاطئ (.. ومن هنا يتخذ شكل حكم مسترسلة كخلاصة مما سيروي فيها بعد، فالوجه المجرّد للقصة الحد المفهومي الذي يتّخذ شكل حكمة) يسبق وجهها المتحقق أيّ سابق على إدراكها من لدن القارئ كمجموعة من القصص المترابطة.. وهذا الترابط هو ما يؤهل هذه المجموعة، كمجموعة اهتمت بالمتوالية الحكائية والشخصيات السّردية، وهذا والوعي بالتشابه.. هو ما يغري بكتابة الرّواية إن لم يكن تمرين مقصود أو

تسخين لانجاز عمل قادم اسمه الرّرّواية أو اقل تقدير روائية قادمة بوعي حاد، وأن كنت رمت في هذه القراءة للشخصيات النص السردي[*]، لاكناقد بل كقارئ ذواقٍ للنصوص يسعى إلى إغراء الآخرين أو تورطهم، ليس بقراءة أرض الحكايا فحسب ولكن بمعاينتهاكذلك جمالاًلاً ورؤية العالم.